العرب
الخميس 2019/11/21
السنة 42 العدد 11535

الفلامنكو يجمع عشاق رقصة الكعب العالي من أطراف العالم

حركات نسقها العرب والإسبان والغجر على موسيقى ممزوجة بالحزن والفرح

ليست كتب التاريخ وحدها من تحفظ الماضي، حتى الفنون تختزن تاريخ مشاعر الشعوب وتعبر عنها في الرقص والموسيقى والغناء، وحين تلتقي هذه الشعوب نكتشف لقاءها وعواطفها في الفن، فرقصة الفلامنكو التي نشأت في إسبانيا وانتشرت في أميركا اللاتينية وشمال المغرب، تعود جذورها إلى تاريخ مشترك بين العرب في الأندلس من الإسبانيين والغجر.

مدريد - تنطفئ الأضواء بينما تنعكس أشعة أفقية على أجزاء من خشبة المسرح الصغير الكائن بمنطقة "كاسا باتاس" الشهيرة باستضافة عروض رقصات الفلامنكو، وسرعان ما تضيء المصابيح ببطء في الوقت الذي ينتظر فيه المتفرجون بفارغ الصبر بدء العرض.

ويبدأ عازفو الغيتار في عزف مجموعة من الألحان ببراعة مصحوبة بتصفيق منتظم من مجموعة أخرى من الموسيقيين، وكذلك الضرب على آلة الكاجون وهي آلة موسيقية تقليدية للنقر.

عندئذ تندفع راقصة بتبختر إلى منتصف خشبة المسرح وهي ترتدي فستانا طويلا مزركشا من اللونين الأحمر والأسود مع إزار أبيض اللون، وترصع شعرها بوردة، بينما ينتصب ظهرها ويرتفع رأسها عاليا في شموخ.

وتمد الراقصة إحدى ذراعيها فوق رأسها وتبدأ في أداء عرضها الراقص، مستخدمة صاجات مشبوكة في أصابع يديها، كما تستخدم كعبي ونعلي حذائها المخصص للرقص في إحداث النغمات العالية المطلوبة عندما تحتك بأرضية المسرح.

وسرعان ما يرصد المتفرج مشاعر الحب والإثارة المطلة من عينيها، ممزوجة بالحزن والغضب والعاطفة الفياضة. ويقول المفكر الإسباني بلاس إنفانتي إنّ الممارسات التي ارتكبها الإسبانيون تجاه المسلمين الذين هربوا من قراهم، واقترابهم من الغجر، كانت العامل المؤثر الذي أدّى إلى ولادة هذا التراث.

وبحسب رأيه، فإنّ الموريسكيّين الذين أصبحوا بلا أرض، اندمجوا مع الغجر وأسّسوا ما يُسمّى بالفلامنكو كمظهر من مظاهر الألم الذي يشعر به الناس بعد إبادة ثقافتهم.

ويجلس المتفرجون في صمت مشوب بالذهول ومأخوذين بهذا العرض، الذي تندمج فيه الموسيقى مع الرقص والأغاني لتصير شكلا فنيا متفردا وطاغيا.

ووصفت منظمة العلم والتربية والثقافة التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو) هذه التعبيرات العاطفية التي تثيرها الآلات الموسيقية وتعبيرات الوجه والإيماءات والحركات والتآلم والأصوات المبحوحة للفلامنكو، بأنها مزيج من "الحزن والفرح والأسى والابتهاج والخوف".

وفي عام 2010 أدرجت منظمة اليونسكو رقصة الفلامنكو في قائمتها للتراث الثقافي المعنوي، ومنذ ذلك الحين تم إعلان يوم عالمي رسمي للفلامنكو للاحتفال بهذا الفن، الذي يمارس أساسا في الجنوب الإسباني، في 16 نوفمبر من كل عام.

ومن المعتقد أن أصل الفلامنكو يرجع إلى الدمج بين الموسيقى الشعبية الأندلسية وموسيقى قومية "خيتانوس" أو الروما الإسبان الذين استوطنوا في الجنوب الإسباني في القرن الخامس عشر، وتعرض أبناء هذه القومية لفترة طويلة للاضطهاد والتهميش، ولم تبدأ أحوالهم في التحسن إلا مع بداية القرن التاسع عشر، عندما كتب الملك رسائل تهدف إلى حماية البعض منهم الذين خدموا في الجيش الفلمنكي.

ويذكر أن العرب المسلمين تواجدوا في الأندلس قرابة ثمانية قرون وجلبوا معهم ألحانا ومقامات وإيقاعات وآلات وموسيقى من الشرق، وقد برع من بينهم زرياب الذي طوّر الآلات الموسيقيّة، لذلك، فإنّ الترابط بين الفلامنكو والموسيقى العربيّة ليس ترابطا عابرا، بل هو ارتباط المولود برحم الأم.

وتنتشر رقصة الفلامنكو في المغرب، وخصوصا في المدن الشماليّة كتطوان، شفشاون، طنجة ومدن أخرى، حيث الشمال المغربي والجنوب الإسباني يتشابهان كثيرا في الثقافة والهندسة المعماريّة للمدن.

ويعتبر الباحثون أنّ طبقة الصوت والإلقاء والانفعال العاطفي تؤكد بأنّ الموريسكيّين هم الذين ابتكروا هذا النوع تضرّعا واستعطافا للكنيسة وللهرب من محاكم التفتيش التي كانت تسعى لإبادتهم، فباتت الفلامنكو تراثا مرتبطا بالكنيسة للتعبير عن الحزن على السيد المسيح.

ويرى باحثون أنّ اسم الرقصة هو نتيجة اندماج كلمتيْن عربيّتيْن هما "فلاح منكم" أو قد تكونان "فلاح منكوب"، فتحوّلتا مع الزمن إلى كلمة واحدة هي فلامنكو، كما افترضت دراسات أخرى أنّ الكلمة الشهيرة التي تستخدم أثناء الرقص وهي الـ"أوليه"، هي في الأصل كلمة عربيّة وهي كلمة "الله". ويعتقد أن كلمة فلامنكو الإسبانية تعني "أبناء قومية الفلاندرز" التي تعيش في بلجيكا، ومع ذلك فمن الممكن أن تكون الرقصة قد تأثرت بالثقافات المغربية والأفريقية وكذلك بثقافة الشمال الإسباني.

غير أن شيئا واحدا أصبح مؤكدا، وهو أن رقصة الفلامنكو لا تزال تلقى إقبالا متزايدا بشكل مدهش اليوم، وأصبحت موازية للثقافة الإسبانية مثل مصارعة الثيران في مدينة بامبلونا ونبيذ ريوخا وحساء جازباتشو اللذين تشتهر بهما منطقة جنوب أندلوسيا.

ويتدفق كل عام عدد لا يحصى من السياح على مسارح عروض الفلامنكو الجذابة لمشاهدة هذا الفن الإسباني مباشرة، وفي مدريد على سبيل المثال توجد الكثير من المسارح التي تقدم عروضا رائعة لهذه الرقصة، يقدمها فنانون وفنانات يتمتعون بالشهرة، وحيث تقدم في بعضها للضيوف أطباق إسبانية شهية.

ووصف ميجويل بوفيدا مغني الفلامنكو فنه، قائلا إن "الفلامنكو عبارة عن موسيقى شعبية، تتمتع بأسلوب بسيط للغاية وإن كان شديد المباشرة والعمق في الوقت ذاته، للتعبير عن الحياة والمشاعر والناس".

وأضاف "في جمل محدودة العدد فقط من خلال هذا الفن، تتم حكاية قصص رائعة والتعبير عن عالم بأكمله".

وهذا العالم اليوم تمتزج فيه أساليب موسيقية أخرى مثل الجاز والبوليرو والتانغو المنتميين إلى أميركا اللاتينية، أو إيقاعات قادمة من منطقة الكاريبي بحيث يصبح فنا مختلفا تماما.

ومن بين نجوم الفلامنكو عازف الغيتار ذو الشهرة العالمية باكو دي لوسيا الذي توفي عام 2014.

وقبل توليه العرش ببضعة أشهر قال الأمير فيليب في تأبين لباكو دي لوسيا النجم السوبر، الذي حمل الفلامنكو الإسباني إلى العالم وأثراه بعناصر من موسيقى الجاز والبلوز، "بموسيقاه جعل من الممكن لنا أن نتخيل عالما أفضل".

> تبدأ راقصة الفلامنكو في إحداث النغمات العالية مستخدمة صاجات في أصابع يديها مع دقات كعبي حذائها

وقد يتساءل البعض عن مصدر الصوت العالي القادم من طرقات الأحذية التي ترتديها راقصات الفلامنكو.

والسر في ذلك يرجع إلى وضع كعوب ونعال خشبية خاصة مرصعة بالمسامير، وهذه هي الطريقة الوحيدة لإصدار هذا الإيقاع الذي لا تخطئه الأذن، والذي يسحر الفلامنكو به الناس ويفتنهم في مختلف أنحاء العالم.

أناقة الحركة

هافانا تتغير ببطء بعد مرور خمسة قرون على تأسيسها

هافانا - تحتفل العاصمة الكوبية هافانا بالقرن الخامس على تأسيسها، دون ناطحات سحاب أو مراكز تجارية أو سلاسل ماركات عالمية، بل مازال يغلب على المدينة الطابع الهادئ والمنازل المشيدة على الطراز المعماري الكولونيالي، على الرغم من بروز فنادق جديدة مؤخرا إلى جوار منازل متهالكة بسبب درجة الملوحة العالية بتأثير الرطوبة لقرب المدينة من البحر أو بسبب تخلي السكان عن هذه المنازل. ويشكل هذا التوازن الغريب حالة خاصة تجعل المدينة كما لو كانت متوقفة في الزمن عند بوابة عصر العولمة ولا تريد عبورها.

يقول المؤرخ الكوبي اويسبيو ليال، المتخصص في تاريخ هافانا "العاصمة الكوبية ليست مجرد مدينة تمر بها مرورا عابرا، بل هي مدينة يلفها السحر ويكتنفها الغموض، وبالتالي لا يسع أحد أن يشعر بها مثلها مثل أي مدينة أخرى مر عليها".

ويشار إلى أن هافانا انضمت إلى قائمة اليونسكو لتراث الإنسانية عام 1982 تقديرا للقيمة الهامة لمعمار منطقة وسط المدينة التاريخية التي تعود للعصر الكولونيالي.

وتعتبر هافانا من أوائل الحواضر التي أسسها المستعمرون الإسبان في العالم الجديد، بعد أقل من ثلاثة عقود من اكتشاف كولمبس للأميركتين عام 1492، حيث تأسست في السادس عشر من نوفمبر 1519.

وتعيش في الوقت الراهن مرحلة تحول انتقالي، تتضح بجلاء في تجاور المنازل الكولونيالية العريقة بحالتها المتردية لأسباب عديدة مع الفنادق ذات الخمس نجوم التي بدأت تبزغ في كل مكان.

تقول إلبيرا سانتانا وهي معلمة متقاعدة تعيش في هافانا منذ خمسين عاما "لم أولد في هافانا، بل جئت من بلدة صغيرة شرقي البلاد، ولكن هذه المدينة أصبحت مدينتي، لأنني أشعر بها كذلك في كل مرة أتطلع فيها كل صباح إلى البحر من نافذة منزلي".

تعيش سانتانا مع خمس عائلات أخرى في الشقة القديمة لإحدى شركات الإعلانات التي رحلت إلى ميامي في عام 1959 والتي قدمتها الدولة للمعلمين الشباب الذين ساهموا في محو الأمية في المناطق الجبلية.

وأنشأوا على مساحة 100 متر مربع العديد من المنازل. وتم تقسيم السقوف العالية لعمل طابقين في نفس الغرفة عن طريق الهياكل المعدنية والخشبية التي تشتهر في كوبا باسم "حفلات الشواء".

ويطلق على هذا المسكن الجماعي اسم "سولارس"، يتجاور في هذا المنزل الجماعي الفقر والثراء، نظرا لقيام بعض السكان بتأجير غرف في مسكنهم للسياح مقابل 50 يورو (55 دولارا) في الليلة.

وعلى نفس السلم، يبدأ الترف وشظف العيش في التعايش بين نوعية جديدة من الناس لم ينشأوا في حالة عدم التفاوت الطبقي والاجتماعي.

وتوقفت العمارة عن التطور مع مجيء المناضلين الثوريين من جيل فيدال كاسترو وتشي جيفارا، الذين انحصرت أولوياتهم في تطوير المناطق الريفية التي كانت معاقبة بالتجاهل من قبل السلطات السابقة.

ولهذا دون تحولات حضرية، تتمتع المدينة اليوم بشخصية توافقية حيث يمكن أن ترى عبر شوارعها مباني فاخرة مهيبة من طراز "آرت ديكو" و"آرت نوفو" وأعمدة ذات أقواس من الفن العربي المصهور في الأندلس المعروف باسم الموديخار أو "المدجن الجديد" إلى جوار مباني "بلوكات" أو كتل خراسانية متكدسة رمادية من تأثير العمارة الشيوعية السوفييتية.

أما أشهر معالم المدينة، فيعتبر الممشى البحري أو كورنيش هافانا كما يطلق عليه شعبيا، ويعتبر من الجولات السياحية الإجبارية التي لا يجب أن يفوتها أي سائح يزور هافانا.

ويعتبر من أكثر الفضاءات ديمقراطية بالمدينة، نظرا إلى أنه حتى الآن مازال العديد من سكان هافانا أو "الهافانيروس" يترددون على الكورنيش ليجلسوا ويتسامروا ويحكوا قصصا تتناول تفاصيل حياتهم اليومية بينما يحتسون المشروبات ويستمعون إلى الموسيقى الكاريبية الشهيرة بصوت مرتفع، وخلال الفترات الصباحية، تتناثر حفنة من الصيادين على الشاطئ يبحثون عن رزقهم القليل.

وعلى الرغم من ظهور الحانات والمطاعم والمتاجر ومصففي الشعر في خضم إصلاحات راؤول كاسترو ونتيجة لمرحلة ذوبان الجليد بين هافانا وواشنطن، خاصة في عهد الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما، مازالت المدينة تعاني من مشكلات تتعلق بالنقل العام وشبكة المياه ونقص المرافق الحضرية والإسكان.

يقول كاميلو اليزوندو، متحدثا عن كفاحه اليومي لكسب عيشه في مبنى مكون من 15 طابقا من طراز المعمار السوفييتي بالقرب من ميدان الثورة التاريخي 'بلازا دي لا ريبولوسيون' "يتوافر الماء هنا بشكل متواتر، ولكن عندما تصل، فإن المشكلة تصبح توافر الكهرباء لرفعها إلى الخزان".

يطرح المشهد البانورامي صورة متناقضة بين هافانا الحديثة والعالمية للسياحة والتي تتعايش فيها أيضا شوارع سيئة الرصف وحيث تمر أيام دون أن تأتي شاحنة جمع القمامة المتراكمة.

ومع ذلك لا تعاني هافانا من مشكلات حواضر لاتينية أخرى تتعلق بأمن المواطن وبؤر البؤس والفقر المرافقة دائما للسكان الفقراء بالأحياء العشوائية ومدن الصفيح.

ويقول الكاتب الكوبي بدرو خوان غوتيريث "نحن بصدد تحسين التغييرات بسرعة كبيرة"، في حين ينظر بقلق كيف "توجد بالفعل مبان يشتري فيها شخص ما جميع الشقق ويحولها إلى 'بنسيونات'".

وضمن قلة من الكتاب، رسم غوتيريث صورة متكاملة لقاع المدينة تعكس إيقاع الحياة اليومية لسكانها من خلال روايته الشهيرة "ثلاثية هافانا القذرة"، يتناول فيها مشاهد عنف وفقر ممتزجة مع مشكلات الجنس والإفراط في تناول الكحوليات.

وفي هدوء ووداعة يجلس روبرتو جوميس كل يوم على الكورنيش، يلقي بخيط صنارته في الماء لعله يفوز بسمكة. يقول "قد تكون لدينا الآلاف من المشكلات، لكننا ننعم هنا بحياة هادئة مستقرة".

مدينة تتوقف عند بوابة عصر العولمة